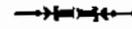


مركلات الوصوح الوصوحية

أزمة إسلامية؟

للدكتور علي حسن عبد القادر

دكتور في الفلسفة والعلوم الإسلامية من جامعة برلين
ومدرس بكلية الشريعة



أوجد حقاً ما يسمى أزمة إسلامية؟ وهل صحيح أن الإسلام
يجتاز في هذا العصر مرحلة اجتماعية خطيرة، وأنه يقف الآن
عند نقطة فاصلة ويمر بدور حاسم في تاريخه، وسيبرهن على
استحقاقه للبقاء والخلود إذا مر بها صحيحاً سليماً؟

كانت هذه الأسئلة تتردد في نفسي وتضطرب وكنت أعالج
منها ضيقاً وحرماً عند ما كنت أقرأ هذه الرسالة الصغيرة « الأزمة
الإسلامية » للأستاذ ريشارد هرتمان^(١)

تري هل أحس المسلمون بهذه الأزمة التي لم تنل بالطبع
عقيدتهم القوية وإيمانهم الصحيح الخالص، أجل. ولكنها نالت
أصراً عزيزاً لديهم. نالت حياتهم في أشكالها المختلفة ومست
قوانينهم وشريعتهم ونظمهم الاجتماعية، وأصبح المسلم مضطرباً
في حياته تقاذفه أمواج شتى من حضارة جديدة وأفكار حرة
وتقاليد موروثه ودين راسخ، لا يجد للتوفيق بين ذلك كله مهلاً
ميسوراً، وهكذا فإن المسلمين في جميع البلدان الإسلامية يمانون
أزمة وشدة تكاد تودي بحياتهم وقد أودت بها فملاً في بعض البلاد
لا شك أن الناس لا يقرؤون التاريخ الحديث للإسلام،
أو كأنهم لا يفكرون فيه كتلة تضم المسلمين في أقطار الأرض،
فهم يغمضون أعينهم عما حصل وما يحصل في تركيا وبلاد الهند
الإسلاميتين من حركات وثورات، بل وما يحصل بين سمهم
وبصرهم في مصر حيث الحياة قلقة والنفوس نائرة والإسلام
ينقبض في عقر داره يوماً عن يوم، وحيث سلطان الشريعة
الإسلامية ضعيف. أترى أن هذا لا يستحق النظر الجذ والتفكير

(١) Rishard Hartmann, Die Krisis des Islam Leipzig 1928

للتعميق، أو أنه يكفي الصراخ والمويل كلما خرج خارج من أفراد
أو دول؟

حقاً أن رجال الأزهر وهم الذين يمثلون جبهة الدفاع عن
الإسلام والدود عن حياضه بما عرفوا به من علم صحيح وفكر
مستقيم وهم وحدهم الذين شعروا بهذا الخطر الداهم الذي يهدد حياة
المسلمين، وهم الذين أدركوا المنحدر الذي قد ينحدرون إليه،
فهبوا يؤدون رسالتهم التاريخية في شجاعة وصبر، مضحين
في سبيل هذا الواجب بهنأهم وسعادتهم غير مباليين بما يقف في
طريقهم من صعاب لا يذنبهم عن عزيمتهم ما يبته لهم الخصوم،
ولا يصددهم عن مهمتهم ما يرميهم به ضعاف الإيمان، وهم من
أجل ذلك في أزمة شديدة قاسية مضطربة تقومهم وحياتهم
أيما اضطراب.

في رسالة الأستاذ هرتمان بيان شامل دقيق لحركات المصلحين
الذين تنوعت بهم طرق الإصلاح، واختلقت لديهم سبل للتجديد
تبعاً للثقافات المختلفة التي عرفوها والبيئات التي انصلوا بها،
فتم من رأى الرجوع إلى القديم والتمسك بالإسلام الأول،
ومنهم من رأى الأخذ بالجديد كله، ومنهم من سلك سبيل
التوفيق. وعلى هذا يدور البحث في هذه الرسالة القيمة التي
سدت فراقاً كبيراً في الأبحاث الإسلامية الحديثة. والأستاذ
هرتمان عالم هادىء الطبع اتصلت به أثناء دراستي ببرلين فعرفته
يمتاز عن غيره ممن يبحث في العلوم الإسلامية بنضوج الفكرة،
والرجوع إلى الحق إذا ظهر له، لا يصدر حكمه إلا بعد تريت
وترو وفي رفق وأدب. وهأنذا أعرض عليك فصلاً من
هذا البحث:

— ١ —

يقول الأستاذ: قلنا نجد بين الأديان الكبيرة ديناً ينفذ
إلى حياة معتقيه كلها فردية كانت أم اجتماعية مثل الإسلام.
ذلك أنه من وقت النبي والخلفاء أخذت الساطة الدينية فيه شكل
الدولة السياسي، وبقى عدم التفريق بين أمور الدين وأمور الدولة
— على الأقل في المبدأ — قائماً إلى الوقت الحاضر. وهكذا ألبس
الدين كل شيء ثوب التشريع والفقه، وقد طور عمل للقرون

الحديث ؟ وهل يستطيع الإسلام أن يتخلص من تأخر المصور الوسطى التي ارتبطت به ؟ وهل هو في نفسه صالح وقادر على التطور ؟ على جواب هذه الأسئلة يتوقف كيان الإسلام كدين ، بل حتى في الأمور السياسية والاقتصادية بالنسبة لمستقبل الشعوب الإسلامية

ولقد كانت مسألة عدم استطاعة الإسلام لإصلاح حقيقي ، وعدم صلاحيته للتقدم ، عقيدة سائدة عند الغربيين منذ عشرات السنين ، ولم تكن هذه العقيدة سائدة عند « أهل التبشير » ، وفي أوساط البشريين الذين لا يفهمون عن الإسلام إلا صورة ناقصة جداً وغير صحيحة ، بل إن الأمر نعدى إلى بعض مؤرخي الأديان مثل رينان الذي كان يقول : إن الإسلام عدو للعلم^(١) . بل قد تعدى إلى بعض السياسيين المارفين بشئون العالم الإسلامي مثل اللورد كرومر الذي حكم على الإسلام حكماً قاسياً حين قال : إن إصلاح الإسلام يخرج الإسلام عن أصله^(٢) .

ونحن لا ننكر أن ما قيل من أن الإسلام عدو للإصلاح وليس ملائماً للأفكار الحديثة ، قد يكون له بعض الأسباب ؛ ولكننا هنا لا نلتقي للكلام على عواهنه ، ولا نعرض لأحوال غير مفهومة لموام المسلمين الذين أثبتت الملاحظات شيئاً من تعصبهم ، فإن ذلك كله لا يرجع إلى الدين الإسلامي نفسه ، بل إلى العناصر والبيئات التي حل فيها ، أو إلى ما انتشر بين الناس من أن الإسلام ليس إلا تكراراً لليهودية والمسيحية ، فمثل هذه الأشياء قد تكون موانع للإصلاح ، ولكنها على أقصى حد أمور تبعية شكلية وليست أموراً أصلية . وأنه من البمد عن موضوع البحث أن تتكلم عن هذه الظواهر الشعبية في الإسلام ، التي هي عبارة عن توفيقات بين تعاليم الدين وبين ما هو متأصل قديم في الشعوب من أفكار ضعيفة وأخرى ساذجة . ولكي يحكم الإنسان على جماعة دينية لا بد له من أن يحكم على مبادئها الصحيحة ، وفي

التولية هذا الفقه إلى بناء هائل منظم لكل أنواع المعاملات والعلاقات الإنسانية تنظيماً دقيقاً ، وأسبغت القوانين كلها ذات ثوب ديني تيمناً لهذا المبدأ الذي لا يفرق بين أمور الدين وأمور السياسة

حقاً إن مثل هذا القانون قد تكون فيه قوة ما دام حياً جديداً موافقاً للمصر الممول به فيه ، ولكن هذا كان إلى حد محدود ، فإنه في أثناء تطوره لم يكن نافذاً ممولاً به على الإطلاق ، لأنه في الحقيقة لم يكن من عمل الدولة وأعضائها ، ولكنه كان عملاً للمؤلفين . وأخيراً عند ما اقتنع الناس بأنه يجب متابعة الخلف للسلف الأول في كل أمر ، وأن كل ما فصل فيه السلف للصلاح مرة في وقت يجب أن ترتبط به الأمة الإسلامية في كل الأوقات . لما حصل هذا أصبح للفقه المحدد لكل حياة المسلمين في ثوبه الديني المقدس خطراً مهدداً يقف أمام كل إصلاح

ولم يشعر أحد بهذا الخطر ولم يكن حاداً ظاهراً ما دام العالم الإسلامي على قمة الثقافة . كان هذا في المصور الوسطى ، وكانت الحياة المسيحية إذ ذاك تشبه هذا إلى حد ما ، حيث كانت حياة المسيحيين تحت سلطان الكنيسة ؛ وكانت هناك ثقافة ومدنية مسيحية كما كانت هناك ثقافة ومدنية إسلامية ، وكلاهما بالرغم من تخالفهما في العقيدة كانا متقاربين ، ونشأً ومن وراثهما ثقافة وثنية . وبينما كان الدين في الغرب يرجع إلى الوراء وتضييق حيزه أثناء مرحلة التطور من المصور الوسطى إلى المصور الحديثة ، وتحمل عمل المدنية المسيحية للمصور الوسطى مدنية وطنية - بقي الإسلام سائراً في طريقه القديم للتألم على الدين . ومن هنا كانت الثغرة بين الشرق والغرب واسعة ، وبقي الشرق والغرب كل له لفته الخاصة إلى يومنا هذا

وأخيراً نوقشت مسائل التاريخ ، وفتح المسلمون أعينهم على وضع المدنية الإسلامية للقرون الوسطى إزاء المدنية الحديثة . فإذا كانت النتيجة ؟

إن العالم الإسلامي يقف الآن عند نقطة فاصلة ، فهو في أزمة ، فهل قطع الإسلام - الذي يظهر مرتبطاً بالمصور الوسطى - كل شوطه وأتم القيام بدوره ؟ وهل هذا المرض الباقي إلى الآن من الإسلام نفسه ؟ أو أن الإسلام كدين متفق مع الإصلاح

(١) - S. E. R. l'Islamisme et la science (Paris 1883) - Discours et Conférence (Paris 1889) p. 375 ff.

(٢) S. Modern Egypt II, 229 "Islam cannot be reformed; that is to say, reformed Islam is Islam no longer : it is something else".

لتطور طويل كثير القلب . ذلك أنه لم يكن الإسلام في عهد الرسول إلا إيماناً مهلاً وقوانين للحياة بسيطة . وعند ما انتشر بهذه السرعة الفائقة في بلاد ذات ثقافات مختلفة غير التي كانت في مهده الأول ، دعا الأمر إلى تحوير وتشكيل . وهكذا تم للإسلام إضافة أشياء إليه أثناء امتزاجه بالتراث للعقل الذي كان عند سكان الأمم المفتوحة . حتى أمور العقائد التي بقيت بعد كفاح شديد مقصورة على مبادئ قليلة خضعت لجولات واسعة حرة من الشرح والتفسير . وكان أكثر شيء توسعاً وازدياداً هو تنظيم أمور الحياة أو بمباراة أخرى الفقه والقانون . ولكن هذا الفقه الإسلامي الذي كان في نوعه دينياً سياسياً ثقافياً ، والذي كان منذ اللحظة الأولى أمراً لا يقبل التعمير ، أقفل نهائياً وختم في نهاية القرن الثالث الهجري تقريباً ، فوقف نشاط حركة دينية سياسية ثقافية نشيطة سلم بأسبابها في المقال الآتي .

على حسن غير القادر

الإسلام يجب علينا أن نفهم مبادئه بكل وضوح ، وأن نستعيد منه ما ارتبط به من أفهام المواقف ، وحيثما فقط يكون حكمنا صحيحاً سليماً .

ولست في حاجة لليوم - لكي نفهم الإسلام في أطواره التاريخية - أن نقرر أنه لا يجوز لنا أن نرجع مباشرة إلى صاحب الرسالة (ص) كما نعرفه تاريخياً ، فإن جاز لنا ذلك فإن الأمور تكون في غاية البساطة ، لأنه ليس من شك في أن النبي - الذي لم يكن نبياً فقط بالمعنى الذي يفهمه الأوروبيون ، بل كان سياسياً يدير أمور الدولة - كان في الحقيقة واسع الأفق في دعوته وبحسب للأمر حسابها . وجوابه المعروف : « إعلمها وتوكل » كلام له منزاه ؛ ويجب ألا ننسأ في مجرى التطورات الأخيرة في الإسلام . ولكن الواقع أن الرجوع إلى ما كان عليه الرسول فقط لا يعرفه الإسلام التاريخي على ما هو عليه كجزء من حقيقته الصحيحة ، فإن الإسلام كما يعتقد أهل السنة ليس إلا نتيجة



الخبير نفسه يسرد

أن

أفضل مشروب نفس
ورطب في الصيف



الشاي المشاي

الشاي الجيد رار السندوسيلان وجواره بسورطرا